التراث التربوي لأحمد سامح الخالدي (1896-1951م)

إن الأمة التي لا تعترف بماضيها، وتصر على الانسلاخ عنه أمة لا مستقبل لها، فالماضي والحاضر والمستقبل تشكّل بمجموعها صناعة الأمة وحياتها وبقاءها. وأمة العروبة عامة وفلسطين خاصة قد أنجبت في ماضيها أفذاذا في مختلف العلوم والفنون والآداب، رغم ما تعرضت له من ويلات وحروب ونكبات متوالية، أذهلت العقول وشتت الأذهان ومزقت الأبدان، إلا أن فلسطين رغم هذا كله أنجبت الكثير من هؤلاء العلماء والمفكرين والأدباء، الذين سطّروا اسم فلسطين في التاريخ رغم انف أولئك الذين يصرون على شطب هذا الاسم من على صفحات تاريخ البشرية الواسع المستمر.

والأستاذ أحمد سامح الخالدي، وهو بالنسبة لنا تاريخ نعتز به ونرفع رأسنا عاليا به، من هذه الكوكبة التاريخية المجيدة التي قدمتها بلادنا، ليستمر العطاء والتواصل بين ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا في شتى مجالات الحياة المختلفة.

تهدف هذه المقالة إلى التعرف على احمد سامح الخالدي، وإبراز دوره الفاعل في مجال التربية والتعليم الذي أبدع فيه، وأجاد، وأحسن.

نسبه ومولده ونشأته

ولد احمد سامح الخالدي في بيت المقدس سنة 1896م (العودات، 1992)، ويذكر البعض أن مولده كان في سنة 1895م، وان مولده كان في يافا (ناطور، 1980). واكثر المصادر تشير إلى أن مولده كان ببيت المقدس، وانه كان في سنة 1896م. والده الشيخ راغب الخالدي، من أسرة مقدسية مشهورة كريمة كان له الأثر الكبير في نشأته نشأة طيبة، ورعاه احسن رعاية مع إخوانه الدكتور حسين، والدكتور حسن، وغالب، ويعقوب، وإسماعيل، وهذا ما يفسر لنا إقبال أبناء هذه الأسرة على العلم، والنهل من مناهله العذبة، والحصول على أعلى مراتبه ودرجاته في ذلك الوقت.

دراسته وثقافته

تلقى الخالدي دراسته وعلومه الأولية في مدرسة المطران بالقدس (العودات، 1992)، ثم سافر إلى اسطنبول والتحق بالجامعة الطبية وتخرج منها سنة 1916م متخصصا في الصيدلة والكيمياء (فرهود، 1998)، ثم التحق بالجامعة الأمريكية في بيروت وتخرج منها يحمل شهادتها في العلوم والتربية. وأشارت بعض المصادر إلى انه درس الصيدلة في الجامعة الأمريكية، وتخرج منها سنة 1917 (العودات، 1992).

ويبدو أن دراسته للصيدلة في اسطنبول لم تتم، أو انه احب أن يكمل هذه الدراسة فكان التحاقه بالجامعة الأمريكية لتحقيق هذه الغاية، وخصوصا أن له أخوين اثنين قد درسا الطب في الجامعة الأمريكية، فكانت رغبته في دراسة الصيدلة والعلوم.

ثم انكب على طلب المزيد من العلم والتحصيل فنال درجة الأستاذ في التربية، ولعل هذه الدرجة العلمية التي حصل عليها أعلى من التي حصل عليها في الجامعة الأمريكية في دراسته للعلوم والصيدلة، ولعلها تعادل اليوم درجة الماجستير، وهذه الدرجة العلمية العالية هي التي أهّلته فيما بعد لتولي أعلى منصب في الهرم التربوي في فلسطين في ذلك الوقت، وهي إدارة الكلية العربية.

مناصبه وأهم أعماله وأنشطته

خدم الخالدي في الجيش العثماني في أواخر الحرب العالمية الأولى (السلوادي، 1991)، وعين رئيسا للصيادلة في مدينة حمص سنة 1917. وبعد ان وقعت فلسطين في قبضة الانتداب البريطاني عاد إلى فلسطين، واعتزل الصيدلة، وعمل مفتشا في إدارة المعارف للوائي يافا وغزة منذ سنة 1920م، ثم تقديرا لكفاءته نقل مديرا مساعدا لمدير المعارف العام.

وعين مديرا لدار المعلمين بعد استقالة مديرها السابق د. خليل طوطح، وقد منحته إدارة المعارف العامة بعض الصلاحيات والامتيازات، وأقرت اقتراحا له تقدم به للمسؤولين بتسمية ذلك المعهد ب «الكلية العربية» (العودات، 1992).

ومن ابرز أعماله أيضا تحقيقه لمشروع اليتيم العربي وتأسيسه معهدا لرعاية الأيتام وتعليمهم في قرية دير عمرو قرب القدس. وشغل أيضا رئيس لجنة التعليم العالي بفلسطين، ورئيس لجنة اليتيم العربية العامة، وكان عضوا في الجمعية الملكية للفنون بإنجلترا، وعضوا في الجمعية الملكية لآسيا الوسطى في لندن. وكان إضافة إلى ما ذكر مؤسسا لجمعية تعميم التعليم ومقرها القدس (سحاب، 1990)، وعضوا في جمعية الشبان المسلمين بالقدس، وعضوا في جمعية فلسطين في الكلية الأمريكية في بيروت والتي أسسها عيد سالم سنة 1913م، وهدفها ربط تلاميذ فلسطين بعضهم بعضا بعرى وثيقة. وكان للخالدي مجلس تميز بأنه مجلس الأدب والتربية، وكان يعنى بدعوة الشباب المثقف إلى منزله، والتباحث معهم في أحاديث في شتى المجالات، وكان من زوار هذا المجلس شاعر فلسطين إبراهيم طوقان، وخليل السكاكيني، واسحاق موسى الحسيني، وحسن عرفات، وغيرهم من أبناء المصرارة وباب الساهرة والقطمون (النشاشيبي، 1996).

وبعد نكبة فلسطين سنة 1948، والتي وقفت في وجه طموحات الأستاذ الخالدي وتطلعاته نحو فلسطين وشعبها، كان ضمن الجموع الكبيرة التي نزحت عن فلسطين، واستقر به المقام في لبنان وأمضى بقية عمره في رعاية أبناء فلسطين اللاجئين، ومساعدتهم، وتعليم أبنائهم (السلوادي، 1991).

من ابرز أعماله أيضا تحقيقه لمشروع اليتيم العربي وتأسيسه معهدا لرعاية الأيتام وتعليمهم في قرية دير عمرو قرب القدس

وفاته وأهم آثاره التربوية

أصيب أثناء إقامته في لبنان وفق 1951/9/27م بضعف في قلبه، وقضى نحبه بالسكتة القلبية ببيت مرّي (العودات، 1992)، ودفن في بيروت بعد حياة حافلة بالعطاء والعلم والابتكار والإبداع.

وكان له فضل كبير على كثير من أهل العلم ورواد الفكر من المعلمين والأدباء والأساتذة البارزين أمثال إحسان عباس، وتوفيق صايغ، وجبرا ابراهيم جبرا، وذوقان الهنداوي، وعبد اللطيف الطيباوي، وناصر الدين الأسد، وعبد الرحمن ياغي، وغيرهم كثير (سحاب، 1990).

ومن أهم الآثار العلمية التي تركها لنا الأستاذ الخالدي وخصوصا في الجانب التربوي:

- أركان التدريس، صدرت الطبعة الأولى منه في القدس سنة 1934 (الخالدي، 1934)، وقام مركز القطان للبحث والتطوير التربوي بإعادة طباعته ونشره في العام 2002، ويقوم المركز حاليا بتوزيع هذا الكتاب على المدارس والمؤسسات التربوية مجانا، ليستفيد منه الباحثون والعاملون في المجال التربوي.
- أنظمة التعليم (جزءان) مطبوع.
- رسالة اختبار الذكاء.
- نظام التعليم في العهد العثماني.
- المعاهد المصرية في بيت المقدس، طبع سنة 1946.

وممّا ترجمه الخالدي في مجال التربية أيضا:

- إدارة الصفوف 1928 للأستاذ بجلي.
- طرق التدريس المثلى 1937 للأستاذ بجلي.
- الحياة العقلية تأليف «وود ورث».
- الطريقة المنتسورية في التربية والتعليم لهولمز (الدباغ، 1991 ؛ فرهود، 1998)

هذا بالإضافة إلى كثير من المؤلفات الأخرى في مجال التاريخ والأدب. ويجدر بنا هنا أن نبين سر اهتمام الأستاذ الخالدي

بالجمع في التأليف والترجمة بين التربية والتاريخ، فالتربية تخصّصه وفنه وعمله الذي أبدع فيه، وأما وجهته التاريخية فقد كانت ردا على مزاعم الحركة الصهيونية والاستعمار البريطاني في امتلاك فلسطين، فأراد لمؤلفاته التاريخية أن تكون سلاحا تتسلح به عقول أجيالنا للدفاع عن فلسطين وعروبتها (السلوادي، 1991).

أهم آرائه التربوية

أحمد سامح الخالدي المربّي

كان ذا شخصية مؤثرة جذابة، وتصبح هذه الجاذبية حبا وعشقا بعد اجتياز حاجز العبوس الذي كان يظلّل وجهه، وبعد الوصول إلى دفء العلم والأبوة اللذين يمثلان رصيده التربوي الثمين (السلوادي، 1991).

وقد وجد في طريق العلم والتربية متنفسا مناسبا لتأدية واجبه اتجاه وطنه وشعبه، فكان نتاج الكلية العربية وما تخرج فيها من شباب فلسطين الذين حملوا شعلة الأدب والتربية خير شاهد على العطاء الذي قدمه لهذا البلد.

ويعتبر الأستاذ الخالدي مجددا ومفكرا تربويا من الطراز الأول، ولا نقول سبق عصره، بل استطاع أن يواكب التطور التربوي الذي كانت تنعم به مدارس الغرب في حين كانت أنظمة التعليم في بلادنا ترزح تحت نير احتلال حاول بشتى الوسائل أن يشتت الأمة ويقضي على وحدتها. كان أحمد سامح عبر هذا الظلام الدامس يضيء مشاعل العلم والتربية، وينقل إلى الأجيال افضل ما توصل إليه علماء التربية في بحوثهم وتجاربهم، ليستفيد منها أبناء بلده والعرب قاطبة، ويعبر عن حرصه ورغبته الأكيدة في ذلك بقوله «إنني لن استريح ولن أطمئن حتى أنقل إلى إخواني وأبنائي في فلسطين وغير فلسطين ما تصل إليه الأمم الغربية من الاختيارات في معالجة مشاكلها التربوية تاركا لهم الحكم في اختيار الأنسب» (الخالدي، 1933).

ويمكن القول أن عامل الشخصية التي تميز بها الخالدي، والبيئة العلمية التي نشأ فيها، وهي بيئة علم وجاه، وما حصل عليه من درجات علمية رفيعة في مجال الصيدلة والتربية، إضافة إلى الواقع الذي عاشه أهل فلسطين تحت الانتداب البريطاني، والخطر المحدق الذي يهدد أهل فلسطين من قبل الصهيونية العالمية، جعل الخالدي يركز همه على وعي الأمة، وإخراج جيل متعلم مثقف يدرك حقيقة ما يجري حوله. ولا يكون ذلك إلا بوضع نظام تربوي حازم صارم، وهذا ما تميز به الخالدي، وهذا ما دفعه إلى مواكبة العلوم التربوية ونقلها إلى مدارسنا بحكم ثقافته الواسعة التي أشرنا إليها. كل هذه العوامل ساهمت مساهمة فاعلة في إنتاج احمد سامح الخالدي التربوي، وجعلت منه رجل التربية الأول في فلسطين بل وفي العالم العربي آنذاك.

موقفه من شخصية المعلم ودوره في العملية التربوية

كان الخالدي يعتقد أن شخصية المعلم من أهم أسس التربية والتعليم، وقد اتضح هذا في سياسته التي كان يختار على أساسها طلاب دار المعلمين، أو الكلية العربية، فقد كان لا يركن إلى المعدلات وتقديم الطلبات، ولكنه كان يطوف بنفسه على جميع المدارس الثانوية في نهاية كل سنة دراسية، لينتخب الأوائل في صفوفها ممن اجتازوا بالذكاء والدراسة ليكونوا طلبة الكلية العربية، والجيل الذي ستستند إليه مهمة تربية أبناء الوطن (السلوادي، 1991).

ويرى الخالدي أن التعليم فن والمعلم فنان، ولكنه يتعامل مع أرقى ما صنعته يد الخالق وهو الطفل، الذي نسعى ليكون عنصر خير وعطاء في أخلاقه وسلوكه وشخصيته البارزة القوية (الخالدي، 1934).

ويؤكد الخالدي على أن التعليم علم له أصول وقواعد معروفة مضبوطة عززتها التجارب فأصبحت علما منطقيا على الحقيقة مبوبا ومرتبا، ومن واجب المعلم أن يقف على هذه الأصول ويدرسها ويعرف أغراضها ومراميها، ويدرك أنها تحتاج إلى تعديل وتنقيح وإصلاح (الخالدي، 1934). والخالدي بهذا يعد من دعاة ضرورة تأهيل المعلمين تربويا والذي يعمل به في عصرنا هذا، بل ويؤكد عليه في بعض وزارات التربية والتعليم نظرا لأهميته في تزويد المعلم بما أشار إليه الأستاذ الخالدي.

يعتبر الأستاذ الخالدي مجددا ومفكرا تربويا من الطراز الأول، ولا نقول سبق عصره، بل استطاع أن يواكب التطور التربوي الذي كانت تنعم به مدارس الغرب في حين كانت أنظمة التعليم في بلادنا ترزح تحت نير احتلال حاول بشتى الوسائل أن يشتت الأمة ويقضي على وحدتها

ومع إقراره بأن التعليم مهنة وفن، يؤكد على

أن صياغة التعليم لا يجوز أن يتولاها إلا أهلها، ومن اعدوا لها خصيصا، أما المرتزقة فلا شأن لهم في هذه المهنة، ومن العار أن يتولى التعليم في المدارس قوم جهلاء مرضى لا يعرفون من قواعد التعليم شيئا، وإنما انحصر عملهم في عدّ الأيام وقبض الراتب (الخالدي، 1934).

ويؤكد الخالدي على ضرورة مذكرة التحضير وإعدادها وأهميتها، ويرفض التعليم الارتجالي، ولو كان قد سبق له أن درس الموضوع اكثر من مرة (الخالدي، 1934). وهذا ما تؤكد عليه انظمة التعليم الحديثة في كل وزارات التربية والتعليم، فالتخطيط الدرسي الناجح والمعد مسبقا يعطي المدرس ثقة بنفسه وبعلمه، وقدرة على الأداء والإبداع، ويكسب ثقة الطلاب بمعلمهم وبقدراته المتنوعة.

ويؤكد الخالدي على أن الغاية من التعليم هي التربية الذاتية وليس حشو ذهن الطالب بالمعلومات والحقائق والارقام، فإن هذه من الفوائد الثانوية التي تأتي عفوا، إنما المهم أن تنشئ في الطالب مقدرة على تربية ذاته وتربية ذهنه وتهذيبه، ليصبح قادرا على توليد الأفكار الجديدة، والقيام بعملية الاستنتاج بنفسه (الخالدي، 1934).

ويدعو الخالدي المعلم إلى عدم التصنع في التدريس، لأنه عملية حيوية طبيعية، وعدم الاستخفاف بتفكير الطفل أو التقليل من قيمته، بل لا بد الى الدخول في موضوع الدرس مباشرة، مع التمسك بالأسس والانتقال مع الطالب درجة فدرجة (الخالدي، 1934).

ويحذر الخالدي المعلم من رفع صوته أثناء الدرس، وينفي أن يكون رفع الصوت مجلبة للانتباه، وباعث على فهم الطالب، فان ذلك خطأ وأي خطأ. وللصوت الإنساني اثر في ضبط الطلاب وأدائهم، فالهياج لا يقابل بالصياح، وإنما يقابل بالسكون والصوت الهادئ، إن الصوت الإنساني الرخيم افعل في النفس من صوت الأوتار الآلية (الخالدي، 1934).

ويدعو الخالدي المعلم أيضا إلى عدم الاستخفاف بالطلاب لأنهم اصدق مقياس لعمل المعلم ونجاحه، وكذلك ضرورة التأني في التدريس وعدم العجلة؛ لأنها عملية لها قوانين ومبادئ، وان العجلة لا تأتي بالفوائد المرجوة والمطلوبة. خلاصة القول إن عمل المعلم يقاس على ثلاثة أسس وهي:

أولا: مادة الدراسة التي يجب ان تناسب مقدرة الطالب بحيث تكون من الصعوبة بدرجة تتطلب إعمال فكره، وان تكون صحيحة غير مغلوطة، ولا مبالغة فيها ولا نقصان، وان تكون مبوبة ومرتبة.

ثانيا: أسلوب التدريس، ويختلف باختلاف الدروس، فالعلوم الطبيعية والجغرافيا استقرائية في حين أن الحساب والقواعد الهندسية استنتاجية، وقد يلجأ المعلم بالضرورة إلى الأسلوب القصصي في الأولى.

ثالثا: سلوك المعلم في الصف، ويشمل شخصيته وهندامه وصوته، وكيفية وقوفه، فالرزانة والحلم واللطف والبشاشة والتأني والصبر والحزم واحترام حرية الفكر كل هذه من العوامل التي تساعد على نجاح الدرس ونجاح المدرس (الخالدي، 1934).

ولقد كان يرى في المعلم وشخصيته الأساس المتين لنجاح مهمة المربي والمعلم، ولا بد أن تقوم هذه الشخصية على ثلاثة أركان هي الحزم والعلم والعمل (السلوادي، 1991).

موقفه من اللغة العربية

على الرغم من أن الأستاذ الخالدي كان معاصرا لمرحلة رواج الإقبال على التغريب سعيا إلى ارتقاء مفقود، فإنه ذو رأي صريح في ضرورة التعليم باللغة العربية كشرط من شروط النهوض (سحاب، 1990). ويؤكد على ضرورة أن تكون اللغة العربية لغة التعليم في جميع المراحل الدراسية من بستان الأطفال وحتى الجامعة، وانه لا سبيل إلى حياة الأمة وإصلاحها الاجتماعي إلا بحياة لغتها وآدابها وثقافتها، فهي كالزجاج المصقول صقلا فائقا تزيد في حدة الذهن، وتجعل الفكر واضحا شفافا. ومما يؤكد موقفه من العربية هذا حرصه على تعريب التعليم في

يؤكد الخالدي على أن الغاية من التعليم هي التربية الذاتية وليس حشو ذهن الطالب بالمعلومات والحقائق والارقام، فإن هذه من الفوائد الثانوية التي تأتي عفوا، إنما المهم أن تنشئ في الطالب مقدرة على تربية ذاته وتربية ذهنه وتهذيبه، ليصبح قادرا على توليد الأفكار الجديدة، والقيام بعملية الاستنتاج بنفسه

فلسطين، وإصراره على أن تكون العربية هي اللغة التي يتعلم بها طلبة الكلية العربية، وهي الكلية الوحيدة في البلاد التي تدرس جميع العلوم فيها باللغة العربية (السلوادي، 1991). وعلى الرغم من اهتمامه بالعربية إلا انه لم تدفعه الحماسة إلى التقوقع، وقصر النظر الذي يغلق الباب أمام تعلم لغة أجنبية، حيث كان يرى أن تعلمها بمثابة النافذة المضيئة لنهل العلوم من معاهد الغرب وجامعاته (السلوادي، 1991).

رأيه في ديمقراطية التعليم

يبدي الخالدي رأيا محافظا ومعاديا ومخالفا لديمقراطية التعليم، إذ يرى ان صرف اهتمام متساو بجميع التلاميذ دون تخصيص النابهين منهم بعناية خاصة هو عبث لا طائل تحته، ويضر بالتعليم، حتى انه يرى أن التعليم الثانوي لم يجعل لجميع التلاميذ (سحاب، 1984).

ولهذا انتقد نظام التعليم في أمريكا الذي يتيح التعليم لجميع الطلاب، وان تعطى الفرصة لكل طالب ليحصل من العلم ما يستطيع. ومما يدل على اهتمامه بالمتفوقين انه اقترح وضع مخطط تعليمي خاص بهؤلاء الطلبة، يوفر لهم كافة الإمكانات التي تحقق الهدف من تعليمهم (سحاب، 1990).

الخلاصة

كانت هذه جولة متواضعة في سيرة شخصية وطنية فلسطينية رائدة في العمل التربوي، تميزت بالحزم والصرامة والعطاء المتواصل الذي لا يعرف الكل ولا الملل، فكان بحق مجددا ومصلحا ومفكرا تربويا حمل همّ وطنه وخدمته وهو يتبوأ أعلى المناصب التربوية، وحمل الهم نفسه حين كان بعيدا عن وطنه الذي احب وعشق، وخدم شعبه في المنافي في لبنان الذي تعلم فيه، ووراه التراب فيه بعيدا عن قدسه؛ مسقط رأسه وموطن إبداعه وعطائه.

قدم لنا الخالدي الكثير من الآثار التربوية والآراء الحديثة التي يترجمها العاملون اليوم في ميدان التربية والتعليم، وكأنه كان يتحدث إلى زمن غير زمنه وواقع غير واقعه. أحب مهنة التدريس والتعليم، ووضع لمزاولتها شروطا وصفاتا لا بد للمعلم أن يمتثلها، ليكون خير رسول لخير رسالة، وجعل من التعليم صناعة لا تماثلها صناعة، وفنا لا يماثله فن.

قدم لنا الخالدي الكثير من الآثار التربوية والآراء الحديثة التي يترجمها العاملون اليوم في ميدان التربية والتعليم، وكأنه كان يتحدث إلى زمن غير زمنه وواقع غير واقعه

وفي ختام هذه المقالة، والتي لم يسعفنا الوقت فيها كي نقوم بدراسة أوسع استفاضة وإحاطة بهذه الشخصية، والوقوف على ملامحها المختلفة وخصوصا مجال اهتمامنا وهو التربية والتعليم والذي أبدع فيه الخالدي، ولذلك فإننا ندعو الباحثين والمتخصصين في المجال التربوي إلى النهوض بهذه المهمة. والله ولي التوفيق.

موسى الخالدي
باحث في المركز
كمال أبو جابر
مدرّس تربية إسلامية

قائمة المراجع

الخالدي، احمد سامح (1934). أركان التدريس، القدس، مطبعة بيت المقدس.

الدباغ، مصطفى (1991). بلادنا فلسطين، ج2، كفر قرع، دار الهدى.

زركلي، خير الدين (1992). الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين.

سحاب، فكتور (1990). الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثالث، القسم الثاني، بيروت، هيئة الموسوعة الفلسطينية.

السلوادي، حسن فتح الله (1991). مركز الأبحاث الإسلامية، القدس، دار الطفل العربي.

عودات يعقوب (1993). من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، القدس، دار الإسراء.

فرهود، كمال قاسم (1998). موسوعة أعلام الأدب العربي في العصر الحديث، حيفا، مكتبة كل شيء.

النشاشيبي، ناصر الدين (1996). هل تعرفون القدس؟، عمان، دار العروبة.